شوقي ضيف والبلاغة العربية

أ.د. محمد عبد المطلب(*)

(١)

عندما نقترِبُ من شخصيةٍ عاديّة لنتعرف على جانب من فكرها - يكونُ من الضروري أن نهيىء أنفسَنا لهذا الاقتراب بتجميعٍ قدرٍ وافٍ من المعلومات التي تجعل هذا الاقتراب مفيدًا ومجديًا، لكن عندما نقترب من شخصيّةٍ مفارقة للمألوف وتخرج على العادي، فإنَّ التهيئةَ لا تكتفي بمثل هذه المعلومات، وإنما تحتاجُ إلى نوعٍ من الإعداد العقلي المنفتح.

كان هذا في الوعي ونحن بصدد مقاربة شوقي ضيف الذي تحول إلى مؤسسة ثقافية ممتدة في الزمان والمكان والمعرفة العلمية. وبرغم هذا الامتداد الزمني، فإنَّ شوقي ضيفٍ ظلَّ في مرحلة الشباب برغم بلوغه مرحلة الكهولة والشيخوخة والكبر والهرم، وهذه المراحلُ المتتابعةُ هي التي أوصلته إلى مكانته الشامخة ليجلس في القمة مع غيره من كبار الرواد.

إن هذه المسيرة الممتدة زمنيًا قد أتاحت لهذا الرائد العظيم قدرة غير محدودة على العطاء. وعظمة هذه القدرة أنها لم تكن تنتظر مردودًا لعطائها. صحيح أن المردود قد يكون ـ أحيانًا ـ من دوافع الاستمرار في العطاء، لكن ذلك لا يكون إلا مع الشخص العادي الذي تمر عليه الحياة، أو يمر هو على الحياة مرورا مألوفًا كغيره من الشخوص، لكن يتغير الموقف تمامًا مع الشخص الأسطوري الذي يطول بقامته عنان السماء، حيث لا ينتظر هذا الشخص جزاء ولا شكورًا.

كما أنَّ هذه الشخصية الشامخة تكون مهيَّأةً للحوار دائمًا، وتسمح لغيرها بالنظر في منجزها، دون حجر أو إغلاق، فكل حوار معها هو إضافة لعظمتها، وترسيخ لبصمتها الثقافية.

(٢)

من هذا المنطلق نقترِبُ من شوقي ضيف لنحاوره في جانبٍ واحدٍ من الجوانب الكثيرة التي شغلته، وقدّم فيها إضافةً غنية. وهذا الجانب هو موقفه من البلاغة العربية الذي قدّمه في واحدٍ

(*) أستاذ البلاغة والنقد الأدبي بكلية الآداب - جامعة عين شمس.

من أهمِّ مؤلَّفاته الغزيرة هو "البلاغة تطور وتاريخ". وقبل المحاورةِ لابدَّ أن نعرضَ لأمرين مهمّين لا يمكن للمحاورة أن تكتمل دونهما:

أما الأمر الأول، فهو موقفه من التراث، وهو موقف المؤمن بعظمة هذا التراث. لكن ليس الإيمانُ بالعظمة حاجبًا لما يراه من سلبيّات هي من طبيعة كلِّ الثقافات العظيمة، حيث تعيش مراحل نهوض، وتمر بها لحظات انطفاء أو خمود.

إنَّ طَرْحَ موقفِ شوقي ضيف من التراث يقتضي استحضارَ الواقع الثقافي العام وموقفه من هذا التراث، حيث انقسم هذا الواقع إلى ثلاثة توجهات: التوجه الأول هو تلك الفئة التي تعصّبت للتراث وانغلقت عليه ورأت أن (كلّ الصّيْدِ في جوفِ الفَرا)، وأنَّ في هذا التراث غنيةً عمّا سواه، وأنَّ الخروج عليه خروجٌ على الهويّة، وبالغ البعضُ فرأى في الخروج على التراث خروجًا على الإسلام ذاته.

أما التوجه الثاني فكان على النقيض؛ لم ير في التراث ما يفيد، مَنْ دَخَلَه لم (يرجع إلا بِخُفَّيْ حنين)، فهو سلسلة من الوقائع المأساوية، وكتل من التحجّر والتخلّف، ومساحاتٌ من الظُّلمة والظُّلم، وأن سبيلَ التقدم إحداثُ قطيعة كاملة مع هذا التراث، ووصل الأمر بأصحاب هذا التوجه أنْ حمّلوا التراثَ كلَّ سوءات وكوارث الحاضر.

وبين هذين التوجّهين يأتي توجّهٌ ثالثٌ يقف في اعتدال من التراث، ويعيد قراءته بوعيٍ منفتحٍ، ومحبّةٍ خالصة. وبدافع الوعي والمحبة يحاوره أصحاب هذا الاتجاه محاورةً منصفةً، مستحضرين الشرط التاريخي الذي أسقطه الاتجاهان السابقان؛ ومن ثَمَّ لم يتقبلوا تقبلاً مطلقًا، ولم يرفضوا رفضًا مطلقًا، وإنما وُضعت نصب أعينهم (شرط الصلاحية)، فما رأوه صالحًا أخذوا منه وعملوا به، وما رأوه طالحًا انصرفوا عنه، وطالبوا غيرهم بهذا الانصراف.

شوقي ضيف واحدٌ مِنْ أعظم رجالات هذه الطائفة الأخيرة؛ لأنها ترى نفسَها ثمرةً من ثمراتِ هذا التراث، وتنظر في منتجاتها الثقافيّة بوصفها امتدادًا للصالح فيه، ومن واجب الابن الوفي أن يقدّمَ لأبنائِه وأحفادِه ما ورثه من تراث أجداده وآبائه في صورته الصحيحة، ومن حق الأبناء والأحفاد أن

يأخذوا من هذا الميراث ما يوافق زمنهم، وأن يتجنّبوا ما ينافر هذا الزمن، محتكمين في هذا وذاك إلى (شرط الصلاحية) .

لقد كان عجبُ شوقي ضيف ممّن أهمل التراثَ من أبنائه، بينما اهتمَّ به أهلُ الغرب اهتمامًا بالغًا، فحققوه ونشروه وأذاعوه بين الناس، وحاوروه كثيرًا . صحيحٌ أنَّ بعضَ هذه المحاورات كانت ظالمةً للتراث، لكنه ظلمٌ لا يلغي القيمة التاريخية والثقافية له، على عكس محاورة أعداء التراث من أبنائه؛ فهي محاورةُ الكاره المحقّر لشأنه، أو لنَقُل: إنها محاورةُ الابن العاق الذي يبذل كلَّ جهده لتمزيق عباءة أبيه، ولا يكتفي بالخروج منها وعليها .

لقد أفاض شوقي ضيف في كشف الظالمين للتراث وعَرْيِ حججهم، وأَسْقَطَ أدلّتَهم بما قدمه مِنْ إنارات تراثيّة في كل مستويات الثقافة والأدب[1] .

أما الأمر الثاني الذي نُقدّمُه بين يدي محاورتنا لشوقي ضيف فهو موقفُه من (تاريخ الأدب)؛ ذلك أن كثيرًا من الدراسات المحدثة أهملت هذا التاريخ، معتمدة (النص الأدبي) . فليس الأدب ـ من وجهة نظرهم ـ سوى النصّ، وما عداه ليس من الأدبية في شيء، ومِن ثَمَّ أصبح دارسو تاريخ الأدب خارج منطقة الأدب .

أمّا شوقي ضيف فيقول: "إن تاريخ أدبِنا العربي في حاجة إلى دراسة متعدّدة تبحث في عصوره المتتالية، وترصد شخصياته الأدبية، بحيث ينكشف كلُّ عصرٍ انكشافًا تامًّا، يجمع حدودَه وبيئاته وآثارَه والمؤثّراتِ التي لاحقته" . ثم يقول: "وقد حاولت أن أنهضَ بهذا العبء، وأنا أعلم ثقل المئونة فيه؛ فإن كثيرًا من الآثار الأدبيّة القيّمة لا يزال مخطوطًا لما ينشر، وكثيرًا مما نُشِر في حاجة إلى أنْ يعادَ نشرُه نَشْرًا علميًّا، وهناك بيئات أدبية يغمرها قليل من الظلام. . . يضاف إلى ذلك أنَّ تحليلَ آثارِ الأُدَباء وتقويمها ليس عملاً سهلاً. . . وذلك كله مما يضاعف الجهد على من يريد تأريخ أدبنا العربي تأريخًا مفصّلاً دقيقًا على اختلاف عصوره وتفاوت بيئاته، غير أنه في الوقت نفسه يضاعف لذته فيه"[2] .

---

(١) انظر: شوقي ضيف: في التراث والشعر واللغة. القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٧. ص٦٤ وما بعدها .

(٢) انظر: شوقي ضيف: العصر الجاهلي. القاهرة: دار المعارف، ط ١٨. ١٩٩٥. ص ٥– ٦.

إنَّ ما شاع في زمن الحداثة يتنافى في قليلٍ أو كثيرٍ مع توجّهات شوقي ضيف؛ إذ إنَّ الرجلَ كان ينظر في الأدب بوصفه ركيزةً أساسيّةً في تاريخ الأدب، وهو ما يمكن أن يمثّل حوارًا متعدّدًا بين الأديب والنصّ والعصر والواقع الخاص، وهذا الحوار هو الذي يربط الجمالي بالتاريخي من ناحية، ويربط الماضي بالحاضر من ناحية أخرى، وليس من حقّ أحدٍ أن يصادرَ هذا الربط أو ذاك؛ لأن المتلقّي عندما يستقبل النصَّ يستقبله في أفقه الزمني وفي أفقه الجمالي خلال سؤال مُلِحٍّ: ما صلة هذا النص بما سبقه في مسيرة الأدب، وهذا السؤال هو الذي يطرح القيم الجمالية في النص، وهل هي قيم موروثة مستهلكة، أم قيم جديدة ومبتكرة ؟ ثُمَّ هل هي قيم فقدت شرط الصلاحية، أم أنّ صلاحيتها مازالت ممتدة ؟

من هذا يتبيّن أهمية التاريخ للأدب والنصوص الممثلة له؛ لأن هذا التاريخ شرط جانبي لوصول النص إلى المتلقي في أفقه الصحيح، فالتاريخ الأدبي يمثل عملية تأهيل للمتلقي لدخول أفق الاستقبال، والنصوص تمثل مجال الممارسة الذوقية الجمالية للمنتجات الأدبية.

وقد ازدادت أهمية تاريخ الأدب مع شيوع مصطلح حداثي هو (التناص) الذي يرصد تداخل النصوص متخطيّة الزمان والمكان، ومن الواضح أن شوقي ضيف لم يطرح هذا المصطلح في تأكيد أهمية تاريخ الأدب، لكنه مارس عمليًّا بعض الظواهر التناصية، في مثل حديثه عن المتنبي وامتصاصه لبعض حكم أرسطو وإعادة إنتاجها في صيغة شعرية خاصة بصاحبها، كما رصد تداخلات هذا الشاعر مع بعض أعلام الشعر الجاهلي والعباسي من أمثال بشار وأبي مسلم والبحتري وأبي تمام وابن الرومي، وكان ذلك مدخلاً لشوقي ضيف للحديث عن مبحث (السرقات) التراثي، وهو ما يعادل مصطلح (التناص) الحداثي[1].

نقول: إن شوقي ضيف لم يتناول التناص بوصفه إجراءً نقديًّا ينصف منهجه التاريخي؛ ذلك أن التناص ينحصر في تحديد العلاقات التداخلية بين النصوص الأدبية، وليس من المتاح الوصول إلى هذا

---

(١) شوقي ضيف: في النقد الأدبي. القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٦. ص١٨٢، ١٢٠، ١١٩.

التحديد إلا بقراءة الأدب في مراحله المتتابعة، وعلاقة النص اللاحق بالسابق، وهو ما أكّد على نحو غير مباشر أهمية تاريخ الأدب.

فتاريخ الأدب هو الذي يفتح أفق الاستقبال المسلح بالوعي والخبرة الجمالية، وهو الذي يعمل على تواصل الإجراءات الإبداعية، دون أن يعوق تحولاتها الدائمة التي تصل إلى درجة التمرّد في بعض الأحيان، فليس من الحتم أن يطابقَ الابنُ أباه في كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ، لكنَّ الحتمَ أن يظلَّ الابنُ على انتمائه لهذا الأب واحترامه له، والاستعانة بخبراته وسابقته قَدْرَ المستطاع حتى لا تحدث القطيعة ثم الانقطاع.

إنَّ تاريخَ الأدب الذي شغل الدكتور شوقي ضيف في مسيرته الثقافية الممتدة ـ ضرورةٌ حياتيةٌ وثقافيةٌ، ولولاه ما أدركت الكتابة الجديدة جدتها، ولولاه ما أدركت أفقها الجمالي في مراحل الحداثة وما بعدها، وليس من المبالغة القول: إن آخر منجزات الحداثة (النقد الثقافي) يكاد يجعل من تاريخ الأدب قاعدته التي يتكيء عليها في ربط وقائع الإبداع بوقائع الثقافة، ووقائع الثقافة إحدى خطوط تاريخ الأدب، إن لم نقل إنها أهم خطوطه.

(٣)

لقد كانت العنايةُ بالتراث من ناحية، وبتاريخ الأدب من ناحية أخرى دعامةَ شوقي ضيف في مقاربته للبلاغة العربية؛ ذلك أنَّ قراءة التراث ومحتوياته الأدبية أَوْقَفَتْه على جملة الاتجاهات النقدية التراثية، وأوقفته على أمّهات المدونات التي تناولت هذا النقد وإجراءاته اللغوية والجمالية؛ ذلك أنَّ كل اتجاه نقدي كانت له خصائصه وركائزه التي استند عليها في إصدار أحكام القيمة، ونسبيّةُ هذه الأحكام أو عموميتها رهنٌ بتوسيع دائرة القراءة، وربط الإبداع بمقدّماته ونتائجه، وربطه بالشرط الزمني. وقبل هذا كله: ربطه بمصدر إنتاجه ومتلقّيه.

لقد واجه شوقي ضيف في قراءته للتراث كمًّا هائلاً من الإجراءات التطبيقية في العصور الأدبية المختلفة، وأدرك ببصيرته ووعيه أنَّ هذه الإجراءات لم تنشأ من فراغ، وإنما هي وليدةُ خبرات وتجارب متعدّدة شكّلت الممارسةَ النقديّةَ وحَوّلَتْها إلى قيمة جمالية صالحة لزمنها، ثم أكسبتها

صلاحية النفاذ إلى ما تلاها من أزمنة، وصَاحَبَ هذا النفاذ بعض التعديلات بالحذف والإضافة، ومن ثَمَّ تحولت الممارسة إلى (قاعدة نقدية) فيها كثير من المرونة، وهذه المرونة مثلت جهودًا خلاقة في عملية التفسير حينًا، والتحليل حينًا آخر، وفي هذا وذاك اعتمد الإجراءُ النقديُّ على البنية اللغوية حالَ خروجها على المألوف: لغويًا أو دلاليًا، وهذا الخروج كان الأساسَ النظري الذي استمدت منه البلاغةُ مجموعَ تقنياتها الجمالية.

وعلى هذا الأساس يمكن القول: إن شوقي ضيف أدرك الصلة الحميمة بين النقد والبلاغة؛ إذ إن معظم الأبنية البلاغية كانت عدّة النقد في ممارساته التطبيقية، وبخاصة ما يتصل بالخطاب الشعري؛ ذلك أنَّ الروائية وتقنيات السرد لم تكن حاضرة في الواقع الإبداعي التراثي.

لقد أدرك شوقي ضيف - مبكّرًا - أَنَّ الدرس البلاغي تأسّس على الخبرة الدقيقة والمعرفة الصحيحة بمكونات البنية اللغوية جزئيًا وكليًا، وأَنَّ الأشكال التي استقرّت عليها البلاغة كانت نابعًا لممارسة تطبيقية واسعة على النماذج الأدبية الراقية، حيث أفرزت الممارسة كَمًّا هائلاً من المواصفات الجيدة وغير الجيدة، أمكن جمعها في محاور كلية، وأمكن إخضاعها لمجموعة من التقاليد الثابتة، لكنه ثبات محكوم بالتحولات المتابعة التي لم تغب عن ذهن البلاغيين، ومن ثم يمكن القول: إنه (الثبات المتحرك) المفارق للتحجّر والجمود.

ومن المهمِّ الإشارةُ إلى أنَّ شوقي ضيف أدرك أنَّ الجهد البلاغي قد بدأ حركته من منطقة المعرفة الكليّة التي تضم ما هو علمي وما هو غير علمي، كما لاحظ أن المعرفة - وحدها - لا تمثّل علمًا بالمعنى الصحيح، وإنما تتحول إلى العلمية تبعًا لأسلوب التفكير الذي سعى لمتابعته في أُمّهات المؤلفاتِ البلاغية، محتكمًا لمنهجه البحثي (الانتقائي) الذي لاحق البلاغة في مجموع ظواهرها وأبعادِها المفسّرة لها، سواء في المرحلة المبكرة، أو المرحلة المتوسطة، أو المرحلة المتأخرة.

لكنه رأى أن البلاغة بهذه المعرفة التي ظلت عليها حتى مراحلها المتأخرة - لم تعد كافيةً لتحتلَّ مكانتها الصحيحة في الواقع الإبداعي والنقدي الحاضر، وبخاصة أن البلاغة التراثية لم تتجاوز الكلمة والجملة والصورة المفردة، والبلاغة الجديدة في حاجة إلى تجاوز كل ذلك والعناية بمباحث الأسلوب

وفنون الأدب المختلفة؛ ليكون هناك توافقٌ بين البلاغة والخطاب الأدبي الحديث بكلِّ مكوّناتِه الأسلوبية والجمالية [١].

(٤)

ليس من همّنا في هذه الدراسة متابعةُ ما قدّمه شوقي ضيف في كتابه "البلاغة تطور وتاريخ" على أهميته البالغة، فقد سبقنا كثيرٌ من الباحثين في تناول هذا المؤلف تناولاً مفصّلاً، وإنما يتجه اهتمامنا إلى القضايا الرئيسية التي طرحها الكتاب خلال استيعابه الواسع للمدونة البلاغية التراثية.

لقد بدأ شوقي ضيف قراءتَه للبلاغة العربية من مرحلة (الذائقة الفطرية) التي تناثرت وقائعها في المجالس والتجمعات الأدبية قبل الإسلام وبعده؛ حيث حضر في هذه الوقائع كَمٌّ جيّدٌ من الملاحظات النقدية الوصفية التي كانت تمهيدًا لأحكام القيمة، وهذه الملاحظات ليست سوى الأشكال التعبيرية الجمالية أو الفاقدة لها. وقد تحوّلت الملاحظاتُ ـ مع التواتر ـ إلى مجموعةٍ من التقاليد الغائمة حتى بداية العصر الأموي، ثم أخذت في الوضوح والتحديد مع العصر العباسي؛ وذلك نتيجة لأمرين: الأول تجميع هذه الملاحظات وتدوينها، وإن كان تدوينًا شبه عشوائي، والآخر تحول هذه العشوائية إلى تقسيم منهجي يضم المتشابهات، ويجمع المتماثلات، ويربطها بنماذجها الإبداعية.

قضية البدايات إذن هي القضيّةُ الأولى التي تناولها في هذه الدراسة عن موقف شوقي ضيف من البلاغة، والحَقُّ أنَّ الرجلَ قدّمَ فيها إضاءاتٍ غيرَ مسبوقة، وبخاصة في رصده لتحوّلات البلاغة من البعثرة إلى التجميع، ثم التقسيم المنهجي.

هنا نتوقف قليلاً لنخلص إلى نتيجة تنبني على ما قدّمه من مراحل لمسيرة البلاغة؛ إذ إنّ هذه المراحل قد ساعدت ـ على نحو من الأنحاء ـ على تحويل البلاغة إلى سلطةٍ ثقافيّةٍ فرضت نفوذَها بوضوح في المرحلة الأموية، حيث خضع الخطابُ الأدبي لهذه السلطة، حتى يمكن القول: إنه أصبح خطابًا رسميًّا يقاربُ الشعرَ ويحاسبه بمقدار موافقته لمتلقّيه، وبخاصة إذا كان هذا المتلقّي من

(١) انظر: شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ .القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٧. ص ٦– ٧.

أصحاب السلطة السياسية. واكتسبت البلاغة قدرًا كبيرًا من سلطاتها من تعاملها مع هذا الخطاب الرسمي، ثم تعاظمت هذه السلطة بمقاربة الخطاب القرآني بوصفه النموذج الأعلى في الفصاحة والبلاغة الذي تستمد منه معظم مواصفاتها المثالية، كي يحيلها البلاغيون الأوائل إلى قوانين تشريعية وظيفتها الأولى إنتاج البلاغة.

وقد ألمح شوقي ضيف إلى شيء من ذلك[1] دون أن يشير إلى تحول البلاغة إلى (سلطة)، على الرغم من أنّه حدّد بوضوح مجموع تراكماتها الوثائقية التي أكسبتها هذه السلطة، بحيث فرضت نفوذها على عملية إنتاج الخطاب الأدبي خصوصًا، والخطاب اللغوي عمومًا.

والملاحظُ أنَّ هذه السلطة الثقافية للبلاغة اكتسبت قدرًا من الاحترام الذي قارب القداسة بتأثيرِ تشريعاتها البلاغية المستمدّة من القرآن، والتي أصبحت نموذجًا يُقاس عليه مُجْملُ الإبداعات الأدبية.

أمرٌ آخر أكّدَ سلطوية البلاغة، هو اتكاؤها الواضح على تحديد المحرمات أكثر من اهتمامها بالمباحات، ومن ثَمَّ جاءت كثير من شروطها ومواصفاتها البلاغية معتمدةً على النفي لا الإثبات؛ فلكي تدخل الكلمةُ منطقةَ الفصاحة يجب أن تتخلّصَ من ثلاثة محظورات: تنافر الحروف، والغرابة، ومخالفة القياس، وكذلك الأمر في فصاحة الكلام.

واللافتُ أنَّ هذه التشريعات البلاغية كانت تشريعات جبرية لا يمكن التسامح فيها جزئيًا وكليًا، وعلى هذا الأساس نَصّبَ البلاغيون أنفسَهم مراقبين لكلِ منتجٍ لغويٍ: إفرادًا وتركيبًا، وترصّدوا المتكلمين عمومًا والمبدعين خصوصًا ليحاسبوهم على أيّ تجاوز لتشريعاتهم، وطالبوهم بالعودة إلى المسلك البلاغي حتى لا تصدر ضدهم أحكام الرداءة، ثم الرفض.

وقد أشار شوقي ضيف إلى الركائز التي استندت عليها البلاغة في تشريعاتها الجمالية، وهي: النحو واللغة وعلم الكلام والمنطق، وفى بعض الأحيان كانت الاستعانة بعلم أصول الفقه[2].

---

(١) انظر: البلاغة تطور وتاريخ، ص١٣، ٢٩.

(٢) انظر: السابق، ص٣٢، ٣٦.

ونخلص من ملاحظات شوقي ضيف إلى أنَّ سلطةَ البلاغة بدأت خلال الممارسة التعليمية، فعقدت مع المتلقّي صلةً أشبه بصلة الأستاذ بالتلميذ، ثم صعدت الممارسة إلى مرحلة تجميع الملاحظات، لتصلَ إلى التقسيم المنهجي الذي استقرت عليه في الأخير.

ونلاحظ هنا أن الجهد التجميعي والتنظيمي بدأ بوصفه جهدًا فرديًا، على نحو ما نلاحظه من "صحيفة بشر بن المعتمر" التي سجّلها شوقي ضيف في كتابه نقلاً عن الجاحظ وأبي هلال العسكري، فقراءة هذه الصحيفة تؤكد بدايةَ استيلاء البلاغة على السلطة؛ حيث تضمّنت الصحيفةُ عشرَ صيغٍ للأمر والنهي، وسَيْطرَ عليها النفي حتى تردد من أدواته ثلاث وعشرون أداة في حيز صفحتين[١].

لكنَّ هذه البداية الفردية تحوّلت إلى مؤسسات لها انتماؤها الثقافي والديني، مثل المؤسسة السنية والاعتزالية والأشعرية والكلامية، ويبدو أن السلطة السياسية قد باركت هذه السلطات البلاغية المختلفة؛ لأنها أدركت أن في هذا الاختلاف والخلاف تعزيز لسلطتها السياسية، وتكريس لهيمنتها، ذلك أن كثيرًا من هذه المؤسسات سعت لاسترضاء السلطة في إجراءاتها التشريعية البلاغية، ولعل شوقي ضيف قد لاحظ شيئًا من ذلك عندما علّق على صحيفة بشر بقوله: "وبشر في هذا كلّه يرينا مَدَى استغلال المعتزلة لملاحظات العرب والأجانب في البلاغة، وكيف أنهم كانوا يحاولون النفوذَ من ملاحظات الطرفَيْن إلى تبين قواعدها السديدة، محتكمين في ذلك إلى عقولهم الناضجة، وبصائرهم النافذة"[٢].

وتقديم الجاحظ لصحيفة بشر تأكيدٌ لما قلناه عن دخول البلاغة دائرة السلطة الثقافية؛ يقول الجاحظ: "مَرَّ بشر بن المعتمر بإبراهيم بن جبلة بن مخرمة السكوني الخطيب، وهو يعلّم فتيانهم الخطابة، فوقف بشرٌ، فظنَّ إبراهيمُ أنّه إنما وقف ليستفيد، أو ليكون رجلاً من النظّارة، فقال بشر: اضربوا عمّا قال صفحًا، واطووا عنه كَشْحًا، ثم دفع إليهم بصحيفة من تحبيره وتنميقه"[٣].

---

(١) انظر: شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ .القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٧. ص ٤٢،٤١.

(٢) السابق، ص٤٥.

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون. القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٣. ج١/١٣٥.

لقد كانت هذه الصحيفة نموذجًا لتجنّب الصدام مع السلطة السياسية والدينية والاجتماعية؛ لحرصها على ربط المعنى بأقدار المستمعين، فلكلِّ طبقةٍ كلامٌ، ولكلِّ حالةٍ مقامٌ، وهى الفكرة التي ردّدها الجاحظُ ثم استقرّت بوصفها أساسًا بلاغيًّا لا يخلو منها مؤلَّف بلاغي قديم.

ومن خلال (الحال والمقام) أنتجت البلاغةُ كَمًّا وافرًا من الأشكال البلاغية (المراوغة)، مثل: الكناية والتعريض والتورية، ولعل ذلك كان وراء المؤلَّف البلاغي المبكّر لابن المعتز "البديع" الذي أولاه شوقي ضيف عنايةً خاصةً، وأوضح اقتصاره فيه على أبنيةٍ بلاغية، نراها نحن أوغل في هذه المراوغة، مثل: تأكيد المدح بما يشبه الذم، والهزل الذي يراد به الجدّ، وتجاهل العارف، والتعريض والكناية، والمذهب الكلامي. فجملةُ هذه الأبنية تعتمد المراوغةَ بين المتكلِّم والمتلقِّي، وبخاصةٍ المتلقِّي الذي يمتلك سلطة من السلطات المتعدّدة في الزمن الثقافي العربي.

إن متابعتنا لجهد شوقي ضيف في "البلاغة تطور وتاريخ" تكشف لنا عن جانب ممتد من السلطة البلاغية وسعيها لترويض جموح المبدعين، وتحويل مغامراتهم الجماليّة إلى أنساق بلاغية منضبطة، خلال مصطلحات (التوسع) و(العدول) و(المجاز)، وصولاً إلى أخطر هذه المصطلحات التي قدمها السكاكي: (الخروج على مقتضى الظاهر)[1].

(٥)

القضية الثانية التي نعرض لها خلال اقترابِنا من شوقي ضيف والبلاغة العربية، هي قضية القضايا من وجهة نظرنا، ولا ندري ـ على وجه التحديد ـ أوّلَ من أثارها، لكنّها منذ أن ظهرت والبلاغيون المحدثون يرددونها خَلَفًا عن سلفٍ، ونعني بالقضية: (جمود البلاغة وتحجّرها) مع السكاكي ومدرسته.

ويغلب في الظنّ أن شوقي ضيف ردّد هذه المقولة إقتداء بأستاذه الشيخ أمين الخولي الذي تناول البلاغةَ العربيّةَ تناولاً شَطَرها إلى: بلاغة أدبية، وبلاغة كلامية، ووُصِل الشطران إلى

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ ، ص٢٩٠ وما بعدها .

السكّاكي ليقودهما إلى التقعيد والجفاف، ومن بعده مدرسته التي قادت البلاغة إلى مرحلة الحواشي والشروح والمتون، وهي المرحلة التي أوغلت في هذا (الجفاف والجمود)[١] .

ثم لاحظ الشيخ أمين أنّ البلاغة دخلت دائرة (العِلْم) على يد السكاكي، وبهذا ابتعدت عن الذوق وأوغلت في الجفاف والجمود[٢] .

يكاد شوقي ضيف يكون صدى لآراء الخولي، بل إنَّ جُلّ البلاغيين الذين قرأهم الخولي كانوا هم عُدّة شوقي ضيف في "البلاغة تطور وتاريخ" . وهذا الموقفُ لشوقي ضيف يدفعنا إلى استحضار موقفه من التراث مرّةً أخرى؛ فقد عنى نفسَه بمحاورة أعداء التراث وخصومه، وناقش حُجَجَهم التي حاولوا بها إثبات تخلّف التراث العربي، ومن هذه الحجج قولهم: إنّ أوضحَ مظهرٍ لهذا التخلّف هو امتلاؤه بالحواشي والشروح، وشرحِ الشروح، والتلخيص، وشرح التلخيص؛ ذلك أنَّ هذا كلَّه زياداتٌ لا طائلَ وراءها، ولا تضيف شيئًا إلى المادة العلمية التي في المتون، فضلاً عن أنَّ بعضها يغني عن بعض، فلا أصالةَ ولا ابتكارَ، وإنما جمودٌ عقلي وتخلّفٌ فكري.

عرض شوقي ضيف لذلك كلّه ثم تصدّى لتفنيده، وكشف عواره قائلاً: "إنَّ الشروحَ والحواشي والتقاريرَ التي تزخر بها المكتبة العربية، هي في واقعها دراسات علميّة تاريخية للعلوم التي تعرضها؛ دراسات يحني لها الباحثون المعاصرون رءوسَهم لدقّتها وتعمّقها . . . . وأضرب مثلاً لذلك: شروح متن التلخيص لعلوم البلاغة، فإنّ السبكي يذكر في مقدمة شرحه لهذا المتن أنه رجع إلى نحو ثلاثمائة كتاب. ومَنْ يستمر في قراءة شرحه يجد تحت بصرِه فيه جميع الآراء التي دوّنت في علوم البلاغة؛ سواء في كتبها الخاصة، أو في الكتب الفرعية المتصلة بها .

ومعروفٌ أنّ القدماءَ وبعض المحدثين اضطربوا اضطرابًا واضحًا في فهم الآراء المنشورة في كتاب "دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني الذي صوّر فيه قضايا علم المعاني ومسائله، غير أنَّ مَنْ يرجع إلى شرح مشهور لمتن التلخيص المذكور، هو شرح السعد التفتازاني، سيجد أضواءً غامرةً

---

(١) انظر: أمين الخولي: مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب. القاهرة: دار المعارف. ص١٤١ .

(٢) انظر: أمين الخولي: فن القول. ط. دار الفكر العربي، ١٩٤٧. ص١٠٠ وما بعدها .

قد سلّطت على آراء عبد القاهر، بحيث أصبحت واضحةً وضوحًا بيّنًا لا يشوبه لبسٌ أو غموض"[١].

فهل ما ذكره شوقي ضيف سنه ١٩٨٧ كان نوعًا من تعديل موقفه من البلاغة الذي قدّمه في "البلاغة تطور وتاريخ" سنه ١٩٦٥، عن أَنَّ البلاغةَ قد حَلَّ بها التعقيد والجمود، وتحوّلت إلى قواعد جافة بعد عبد القاهر والزمخشري؛ فقد فتنت العصور التالية بهما، حتى إنها لم تستطع أن تضيفَ إليهما شيئًا ذا بال، إلا أن تَعْمدَ إلى درسِهما، وإلا أن تتعبّدَ ما قالاه وأحكماه، وكل ما كان من إضافة هو تحوّل ما قاله الرجلان إلى قواعد جافة وجامدة بما تمَّ إضافته من تعقيدات الفلسفة والمنطق، وهو ما أدّى إلى انفصال البلاغة عن الأدب، وتحولها إلى قواعد علمية مثل قواعد النحو والصرف؟

ومن أوائل من ساروا بالبلاغة في هذا الطريق: الفخر الرازي، ثم السكاكي، ثم تتالت الشروح والحواشي الممتلئة بالغموض والصعوبات البعيدة عن التحليل الجمالي للنصوص[٢].

واضحٌ أنَّ شوقي ضيف كان متأثرًا بآراء شيخه أمين الخولي عندما أقدم على كتابة "البلاغة تطور وتاريخ"، فلمّا أَدْركَ بعضَ الخلاص من أثر شيخه عَدّلَ موقفَه من البلاغة ومن شروحها على نحو ما عرضناه. وإنصافُ الحقيقةِ يقتضي أَنْ نتوقّفَ توقّفًا متأنّيًا أمامَ ادّعاء جمود وعقم البلاغة؛ لأن هذا الإدعاءَ يعني أَنّ ظلم البلاغة جاء من أقرب الناس إليها، وقد بدأَ هذا الظلم مع حركة إحياء التراث، ثم ازداد الظلم في المرحلة الوسطى، ليصل إلى ذروته مع مرحلة الحداثة.

لقد ارتكزت دعوى الجمود والعقم على أَنَّ البلاغةَ تخلّت عن فطرتها لتدخل في دائرة (العلم)، حيث تصور شيوخُنا أَنَّ العلمية كانت أخطر المزالق التي سقطت فيها البلاغة، وحجتهم أنها دراسةٌ ذوقيّةٌ جماليّةٌ، وتَحَوُّلُها إلى العِلْمية فيه قضاءٌ على كثير من جمالياتها، وهو الأمر الذي اعتمده شوقي ضيف في "البلاغة تطور وتاريخ".

---

(١) في التراث والشعر واللغة، ص٧٠ — ٧٥.

(٢) البلاغة تطور وتاريخ، ص٢٧١ — ٢٧٣.

وفى رأينا أَنَّ في هذا ظلمًا بيّنًا للبلاغة؛ لأنه شَرفٌ لها أَنْ تكونَ علْمًا منهجيًّا، عن أن تكون بحوثًا مبعثرةً لا يضبطها منهج، ولا تحكمها خطة، وكم كنت أعجب أن تُعَاب دراسةٌ - أيُّ دراسة - بأنها لبست ثوبًا علميًّا منظمًا، وكيف توصف عند ذاك بأنها "قوالب منطقية جافة أشدّ ما يكون الجفاف"[١].

إنَّ تقبّلَ هذا الموقف الظالم للبلاغة العربية يعني أَنْ نتغاضى عن أنّ (العلمية) أصبحت صاحبةَ السيادة في عالمنا المعاصر، وأصبح المنهجُ العلمي مساويًا لحقيقة نهوض أيّ مجتمع، فعلْميّةُ البلاغة يجب أَنْ تكونَ مجال اعتزاز بهذا الجهد الذي بذله القدماء لتحويل البلاغة إلى علم مكتمل الأصول والفروع؛ ذلك أَنّ العلم ليس إلا منهجًا في التفكير، وكلُّ علمٍ يستخدم المنهج الذي يتوافق مع خواصه الذاتية، فإن لم يجد من المناهج ما يناسبه اسْتَحْدثَ منها ما يساعده على أداء مهمته، وهو ما صنعه رجال البلاغة؛ إذ أضافوا إلى ما ورثوه من توصيف مبعثر كثيرًا من التنظيم والتبويب، متغلّبينَ في ذلك على كثير من الظواهر النسبية التي تعتمد الذوق والانطباع، فليست العلمية وَقفا على الحقائق الثابتة أو شبه الثابتة، بل المهم كيفية التعامل مع هذه الحقائق سواء أكانت مطلقة أم نسبية[٢].

إنَّ القراءةَ المنصفةَ للمدوّنة البلاغية التراثية تدرك قيامَها على أساس من الخبرة الدقيقة، والمعرفة الصحيحة بكل مكونات البنية اللغوية، وكان ذلك كلُّه ناتجًا لمجموعة من الممارسات التطبيقية على النماذج الأدبية الراقية ـ كما سبق أَنْ ذكرنا ـ وهو ما مثّل تمهيدًا منهجيًّا لدخول البلاغة دائرة العلم، وقدْ لاحظ السكاكي شيئًا من ذلك عند تدوين "مفتاح العلوم"؛ حيث ألَحَّ عليه فاضلو زمانه أن يصنّفَ مختصرًا يحظيهم بأوفر حظ منه، وأن يكون أسلوبُه أقربَ أسلوبٍ إلى فهم كلِ ذكي، فقدّم مصنّفه، وضمّنه كلَّ المطالب (العلمية) خلال محاور ثلاثة: الصرف، والنحو، والبلاغة[٣].

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ، ص٢٨٨.

(٢) انظر: محمد عبد المطلب: البلاغة العربية(قراءة أخرى) . مصر: لونجمان،١٩٩٧. ص٢-٣.

(٣) انظر: السكاكي: مفتاح العلوم. بيروت: دار الكتب العلمية. ص ٣.

لقد حرص شيوخُنا - ومنهم شوقي ضيف - على أَنْ تظلَّ البلاغةُ فنًّا، وفى رأيي أنه لا تناقضَ بين فنيّة البلاغة وعلميّتها؛ ذلك أنَّ البلاغة (فن الصنعة)، وكلُّ ما يأتي من وراء الصنعة لابدَّ أَنْ يحتكمَ إلى الإعداد والتدبير؛ لأن العفويّةَ والانطباعيّةَ لا تحتملُهما العلميّة أو الصنعة، وبخاصة أنّ البلاغة تتعامل مع ظاهرة إنسانية كلية هي (الكلام)، ولإحكام التعامل معها لابدَّ من حضور منهج وقواعد إجرائية تنظيمية، على أَنْ يكونَ في الوعي - دائمًا - الابتعادُ عن التعسّف وقهر الظواهر، وأن تكونَ الغلبةُ للقصدية بأطرها العقلية التي تدرك التشابهات والتلازمات التي تدخل البلاغة في طبيعة نسقية متكاملة. وأعتقد أَنَّ هذا ما استهدفه الجهدُ البلاغيُّ على يد السكاكي ومدرسته، وهى المرحلة التي وصفها شيوخنا بالتحجّر والجمود والعقم.

نخلصُ من هذا إلى أن علميّةَ البلاغة علميّةٌ فنيّةٌ جمعت البلاغةَ والنقدَ على صعيد الوصف ثم التقييم، فقد توحّدا وكوّنا أداةً تحليلية قادرة على التعامل مع الخطاب الأدبي بمستوياته كافة، ونحن نعرف أَنَّ النقدَ عملية تلاحق العمل الأدبي لتميّز فيه بين الجيد وغير الجيد، كما نعرف أَنّ البلاغةَ تقومُ على خبرات مستمدّة من معايشة النصوص لتوصيفها مبنى ومعنى، فيما يتصل بالخروج على المواضعة اللغوية في مباحث البيان من مجاز واستعارة وكناية، بالإضافة إلى التشبيه بوصفه البنية العميقة للاستعارة، وفيما يتصل ببناء الجملة والجمل بكلِّ الاحتمالات التركيبيّة التي تتمرّد على النمط المثالي المحفوظ، ثم تمتدُّ البلاغة إلى البديع بوصفه إضافة تحسينية.

وقَدْ حَدَثَ التمازجُ بين النقد والبلاغة نتيجة للصلة الحميمة بين تمييز الجيد من الرديء، والوسائل المعينة على هذه الجودة.

وهكذا انتهت المساراتُ البلاغية إلى الاتساق، مفيدة من الحقائق العلمية في مباحث اللغة والنحو والمنطق، ومفيدة من مباحثات الذوق الجمالي، وبهذه الإفادة امتلكت قدرةً تحليليّةً للكشف عن جماليات الصياغة الأدبية، وتقديم هذه الجماليات في نسق علمي مشبع بالذوق الجمالي المدرب.

فكيف بعد ذلك كلّه يمكنُ اتهام السكّاكي في كتابه بـ "كثير من العسر والالتواء؛ بسبب ما عمد إليه من وضع الحدود والأقسام المتشعّبة، فإذا المباحث البلاغية تشبه غابة، بل دغلاً ملتفًا لا

يمكن سلوكُه إلا بمصابيح من المنطق ومباحث المتكلمين والفلاسفة. . . ويحتاج كتابُه إلى الشرح تلو الشرح، وتتوالى الشروح، فيشرحه: قطب الدين محمود بن مسعود الشيرازي، والخطيب والترمذي، والتفتازاني، والشريف الجرجاني. . . وغيرهم، وكان ذلك إيذاناً بتحجّر البلاغة وجمودها جمودًا شديدًا"[١].

(٦)

القضيّةُ الثالثة التي تأتي في هذا الحوار مع "البلاغة تطور وتاريخ" هي قضية (البديع)، فقد خصّها الكتابُ بمحور مستقلٍ عرضًا وتحليلاً، تضمّن الجهدَ البلاغي الذي انتهى إلى تجميع ظواهر التحسين في علمٍ له استقلاليته النسبية هو (علم البديع)، وما تبع ذلك من ظهور ما سمّي (البديعيات). ويطول بنا الأمرُ لو رحنا نتابع كلَّ ذلك في الكتاب، ومن ثَمَّ فإننا نتوقف بالحوار عند ما انتهى إليه شوقي ضيف من دخول البديع منطقة الشروح والتلخيصات دخولاً كمّيًا أكثر منه دخولاً كيفيًا، وأنَّ هذا البديع ومحسناته كان صورةً غثّةً، ضررُها أكثر من نفعها؛ لأنها خلطت بديعًا مزيّفًا بالبديع الحقيقي، بل إن المزيّفَ هو الذي حظي باهتمام البلاغيين. ويعجب شوقي ضيف أنَّ أحدًا من معاصري هذا الطوفان البديعي لم يحاول أن يلوّحَ في وجوه هؤلاء البلاغيين ويدعوهم للرجوع إلى صوره الجميلة عند ابن المعتز وقدامة، وقد أكّدَ البديعُ جمود البلاغة عن طريق الحواشي والشروح وهي إطالة لا طائل من وراثها[٢]. نعيد قراءة ما خَلُصَ إليه شوقي ضيف لنقول: إنه أصاب في كثير مما خلص إليه، وبخاصة ما لاحظه من كثرة الأشكال البديعية، وأنَّ هذه الكثرة امتزجت بالصنعة والتكلف، وامتصّت كثيرًا من مباحث الكلام والمنطق وعلم الأصول.

وبعد ذلك لنا تحفظ على بعض ملاحظاته التي طالت البحث البديعي، ونبدأ مما انتهى إليه، وهو أنَّ أحدًا من معاصري هذا الطوفان البديعي لم يلوّح في وجوه البلاغيين ويدعوهم للعودة إلى صور البديع الجميلة.

---

(١) انظر: البلاغة تطور وتاريخ، ص٣١٣.

(٢) انظر: السابق، ص ٣١٣.

ونشير هنا إلى رجلين من مدرسة السكاكي قد لوّحا بما أشار إليه شوقي ضيف؛ أما أولهما فهو الخطيب القزويني صاحب "الإيضاح" الذي ختم كلامَه على علم البديع بالإشارة إلى أن هناك أبنية بديعية يتعين إهمالُها لأنها لا تدخل في فنّ البلاغة، مثل: التحسين في الخط وما يتصل به من كون الحروف منقوطة أو غير منقوطة، ومثل بعض الأشكال التي لا أثر لها في التحسين مثل (الترديد). بل أشار الرجلُ إلى ما يَرِدُ في كتب بعض المتأخرين وأنه بلا جدوى[١].

وأما الآخر فهو سعد الدين التفتازاني الذي طالب بأَنْ يكونَ أصلُ الحسن في المحسنات أَنْ تكونَ الألفاظُ تابعةً للمعاني، وألا تكونَ متكلّفةً مصنوعةً كما يفعل بعض المتأخرين الذين لهم شغفٌ بالمحسنات اللفظية؛ فيجعلون الكلام كأنّه غير مسوق لإفادة المعنى، ولا يبالون بخفاء الدلالات وركاكة المعنى، فيصير كعمد من ذهب على سيف من خشب[٢].

وأما دعوةُ شوقي ضيف للبلاغيين بأن يعودوا إلى ما قدّمه ابن المعتز وقدامة؛ لأن فيهما غنية ـ فإنَّ ما قدّمه الرجلان مع أهميته لا يمثل مبحث البديع تمثيلاً صحيحًا؛ إذ يكاد يغيبُ عنهما أكثر الأشكال البديعية التي لقيت عناية القدامى، ولقيت عناية البنيويين والأسلوبيين المحدثين، والمجال لا يسمح بالإفاضة في تناول هذه الأشكال تفصيلاً.

والحَقُّ أنَّ شوقي ضيف لم يكن سابقًا في الهجوم على البديع، فقد سبقه إلى هذا الهجوم شيوخُه، حتى ساد يقينٌ عند دارسي البلاغة أنها علمٌ قد احترق بتأثير مقولات شيوخنا السابقين الذين صبّوا كل غضبهم على البلاغة عمومًا، والبديع خصوصًا. وخصوصية البديع أنه - من وجهة نظرهم - أداةٌ تعبيريّة للتلاعب اللفظي والحيل الشكلية، وانتهى الأمر عند المحدثين إلى أن البديع نوع من الزيف التحسيني الذي ينافي الأدبية.

ويبدو هذا الهجوم على البديع وكأنّه صحيفة اتهام يتناقلها التلاميذ عن الأساتذة حتى وصلت إلينا، وأخذنا نردّدها دون فحص لأدلة الاتهام، وتحديد الأدلة الصحيحة وغير الصحيحة.

---

(١) الخطيب القزويني: الإيضاح، تحقيق: عبد القادر حسين. القاهرة: مكتبة الآداب،١٩٩٦. ص٤٥٠.

(٢) شروح التلخيص. مصر: عيسى البابي الحلبي،١٩٣٧. ج٤/٤٦٨، ٤٦٩.

وإذا كان حقُّ الأساتذة - غير المنكور - أَنْ يقدّموا وجهةَ نظرِهم فيما وصل إليهم من مباحث البديع ـ فإنَّ حقّنا ـ غير المنكور أيضًا ـ أَنْ نحاورَهم فيما قدموه، وبخاصة بعد طوفان الترجمات للمنجز الوافد في النقد عموما، والأسلوبيات خصوصا؛ إذ إنَّ كثيرًا مما تضمّنه المنجز الوافد يكاد يتوافق إلى حدٍّ كبير مع كثير من الأشكال البديعية المرفوضة، وبخاصة تلك الأشكال الصوتية الحادة في صوتيتها، وكل الفارق لا يجاوز تجميع المتشابهات والمتماثلات في محاور كلية تحت مصطلحات طارئة توهم بالحداثة.

ومن هذه المصطلحات (التماثل) الذي يمكن أن يستوعبَ الأشكال البديعية التماثلية صوتيًا ودلاليًا، مثل: السجع، والجناس، والترصيع، والتصريع، ومراعاة النظير، وتشابه الأطراف. . . وغيرها من أشكال البديع التي تنتج بلاغتها خلال التوافق الصوتي أو الدلالي.

وفى موازاة التماثل يأتي (التقابل) ليجمع الأشكال القائمة على المفارقة، مثل: الطباق والمقابلة، والعكس، والمدح بما شبه الذم، والذم بما يشبه المدح، والرجوع. . . وغيرها من الأشكال التي توافقها في إنتاج المفارقة اللفظية أو الدلالية، أو التي تعتمد الموقف أو المقام.

وهناك مصطلح (السبك) الذي جاء مع (علم اللغة النصّي)، وهو مصطلح يمكن أَنْ يضمَّ من أشكال البديع: الإرصاد، والمزاوجة، واللف، والنشر، والتفريق، والتقسيم، والاستتباع، وحسن التعليل. . . وغيرها من الأشكال التي تعمل على عقد علاقة صياغية بين الدوال والتراكيب والفقرات داخل النص.

ويطول بنا الأمرُ لو رُحْنا نستحضر مصطلحات الحداثة وتقبّلها لكثير من الأشكال البديعية، والإشارة تغنى عن العبارة.

وليس معنى هذا أَنَّ كلَّ الأشكالِ البديعية قابلةٌ للتوظيف في قراءة النص قراءة تحليلية جمالية، وإنما معناه أَنَّ تعميمَ الحكم على البديع تعميمٌ ظالمٌ، وأن هناك جانبًا في البديع يمكن الإفادة منه، وهو جانب لا يستهان به، شَرْطَ أن تكونَ الإفادةُ رهنًا بأنَّ الأشكالَ البديعية بنيةٌ أساسية في الصياغة لا مجرد تحسين إضافي.

ومن هذا المنطلق لا نرى فارقًا بين توظيف أبنية علم البيان والمعاني، وأبنية علم البديع؛ إذ كلُّها أدوات تعبيرية منتجة للأدبية، دون القول بوجود أدوات أساسية وأدوات إضافية، وهو القول الظالم الذي أطلقه البلاغيون القدامى على أدوات علم البديع، فظلموه وظلموا أنفسهم، على الرغم من أن ممارساتهم التطبيقية لم تعتمد هذه التفرقة الظالمة التي مهّدت السبيل للمحدثين أن يصبّوا رفضَهم على مباحث هذا العلم، وبخاصة بعد الإفراط في كشف أشكال جديدة ربما كانت من المقبحات لا المحسنات.

(٧)

القضية الأخيرة التي نعرض لها في محاورة "البلاغة تطور وتاريخ" هي القول بأنَّ البلاغة توقفت - تقريبًا - عند السكّاكي؛ لأن هذا التوقّفَ - إنْ صحّ - فإنما يصحُّ بالنسبة للركائز الأساسية في علوم البلاغة الثلاثة: البيان والمعاني والبديع، أمّا الفروع والتوابع فقد تجاوزها من جاء بعد السكاكي تنظيرًا وتطبيقًا، أي: إنَّ التوقّفَ المزعوم كان توقّفًا متحرّكًا إنْ صحّ التعبير.

وإذا صحَّ أنَّ مَنْ جاء بعد السكاكي قد دار في فلكه، فإن الصحيح - أيضًا - أنه وسّع دائرة الفلك طولاً وعمقًا؛ طولاً بالإضافات والتعليلات، وعمقًا بالشرح والاستقصاء. ومن يقرأ "شروح التلخيص" متخلّصًا من الأحكام القبلية - فسوف يفجؤه جهدٌ تأليفي هائل، يلاحق الملفوظ الأدبي ملاحقة كلّية وجزئية، بدءًا من المفرد بكل مواصفاته الصوتية والدلالية، وصولاً إلى المركب بكل ظواهره التعليقية والسياقية.

وقد انطلق هذا الجهدُ من الإدراك الشامل لمباحث البلاغة، وما كان من الممكن أن يتحقّقَ هذا الإدراك إلا بافتراض الوحدة التصوّرية لمفردات البحث البلاغي؛ ذلك أنَّ البلاغيين ربطوا (الإفراد) بعلم البيان، و(التركيب) بعلم المعاني، لكنَّ ارتباطَ المفردات بعلم البيان لا يعني الاحتكام إلى المواضعة المعجمية، بل إنَّ اهتزازَ الدلالة وانزياح الدال عن المدلول لا يمكنُ إدراكُه إلا بدخول المفردة في السياق التركيبي، وهو ما يعني وحدة (البيان والمعاني)، فبين العلمين علاقة جدلية أفاض في كشفها وتحديد خيوطها شيوخ (شروح التلخيص).

وإذا كان البلاغيون قد جعلوا (علم البديع) تابعًا للعِلْمين السابقين فإنّ (التابع والمتبوع علم واحد) كما يقول بهاء الدين السبكي[١].

بل إنَّ السكاكي ومدرستَه قد أعطوا للبديع سلطة لم يحظ بها العلمان الأساسيان: البيان والمعاني، حيث تركوا مباحثَهُ مفتوحةً لاستيعاب مجمل الأشكال التعبيرية التي لم تقع تحت ملاحظتهم، ولعلَّ ذلك كان وراءَ إيغال البلاغيين في الإكثار من الأشكال البديعية حتى جاوزوا المعقول والمقبول.

ويهمنا الإشارة هنا إلى أنَّ البلاغةَ عند السكاكي ومدرسته قد أصبحت علمًا صحيحًا بعد أن تحقق لها أمران:

الأول: أنه قَدْ تحدّد ما هو داخل في اختصاصها، وما هو خارج هذا الاختصاص.

الآخر: أنَّ هذه البلاغة قد اكتملت أدواتها التحليلية على مستوى الشكل، كما تحقّق لها قدرة فحص المهام الدلاليّة التي تتحملها المفردات والتراكيب في الخطاب الأدبي، مما يعني أنّ دائرةَ الاختصاص قد انحصرت في الأدبية. وإن لم يستطع البلاغيون حَصْرَ أنفسهم في هذه الأدبية دائمًا؛ إذ شدتهم السياقات الإخبارية ـ أحيانًا ـ نتيجة لاحتياجها لتوظيف بعض أدوات البلاغة، وبخاصة في سياقات (القضاء) و(الفقه) التي تبنى صياغتها ـ أحيانًا ـ على أدوات تعبيرية موغلة في بلاغيتها[٢].

إنَّ اكتمالَ الأدوات التحليليّة لم يكن على مستوى التقديم النظري. وإنما تحرك من التنظير إلى التطبيق، وقدم السكاكي نموذجه في هذا السياق في تحليله لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي. . .﴾ (الآية)، حيث حلّل الآيةَ تحليلاً بلاغيًّا متكاملاً، يبدأ بأدوات علم البيان مثل التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية والتعريض، وأدوات علم المعاني، مثل: التقديم والتأخير،

---

(١) شروح التلخيص، ج١/٥٠.

(٢) انظر: البلاغة العربية(قراءة أخرى)، ص٣٦.

والحذف والإيجاز والتعريف والتنكير والتأكيد، وأدوات علم البديع، مثل: الطباق والجناس والحشو[١].

السكاكي إذن كان على وعيٍ بتكاملِ علوم البلاغة، وقد واصلت مدرستُه مسيرتَها معتمدة هذا الوعي، لكنها لم تتوقف عنده، بل جاوزته، وعدلت بعضاً مما اعتمده، وأضافت ما غاب عنه؛ ومن ثَمَّ تحقق للبلاغةِ أن تكونَ عِلْمًا صحيحًا جديرًا بالاحترام .

(١) مفتاح العلوم، ص١٧٦ – ١٧٨ .